حياة
السلطان عبد الحميد خان الثاني

(١٨٤٢-١٩١٨)

أ. نشأته وتوليه العرش

ولد السلطان عبد الحميد الثاني خان في ٢١ سبتمبر عام ١٨٤٢م في قصر "جيراغان" من الزوجة الرابعة للسلطان "عبد المجيد" وتدعى "تيرموجْغان" (Tir-i müjgan) الشركسية الأصل. توفيت والدته وهو في العاشرة من عمره. فعهد به والده السلطان "عبد المجيد" في هذه السن إلى زوجته العاقر "برستو" (Perestu). وظل تحت رعايتها. ويقول هو نفسه عنها: إنه تربى على يد أم حنون بحق. لذا خلع عليها لقب "السلطانة الوالدة" عند توليه العرش بعد ٢٨ سنة.[١]

تلقى الأمير عبد الحميد الثاني، الذي عاصرت طفولته وصباه أزهى سنوات فترة التنظيمات،[٢] تعليماً خاصاً مع شقيقه "مراد الخامس". وطبقا لتقاليد القصر المعتادة، تلقى تعليمه الأول على يد أساتذة متخصصين

1 Ahmed Akgündüz; Bilinmeyen Osmanlı, OSAM Yayınları, Istanbul 1999, s. 265-267

2 Engin Akarlı; "II. Abdülhamid: Hayatı ve Iktidarı", Osmanlı Ansiklopedisi, Cilt 2, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 1999, s. 253-264

obeikandl.com

مشهورين بإلمامهم التام بأمور الدولة وعلومهم الغزيرة. وكان شديد الذكاء، يتمتع بذاكرة قوية جدا، وكان يسعد كثيرا بممارسة الأعمال اليدوية.[١] وتعلم اللغة التركية على يد "كَرْدَانْقِيرانْ عمر"، والفارسية على يد "علي مَحْوي أفندي" والعربية وعلوماً أخرى على يد "فريد أفندي"، و"شريف أفندي"، والتاريخ العثماني من كاتب الوقائع "لطفي أفندي"، وتعلم الفرنسية مع كل من "أدهم" و"كمال" باشا وأحد الفرنسيين ويدعى "كاردت".

وتلقى الموسيقى والبيانو من الإيطاليَين "غواتَلّي" و"لومباردي". ولديه كذلك جانب شعري إذا تأملنا الأشعار التي كتبها حتى لو كانت قطعة أو قطعتين.[٢]

اعتلى السلطان عبد الحميد خان الثاني عرش الدولة العثمانية يوم الخميس ٢١ من أغسطس عام ١٨٧٦م، بناء على وعد بينه وبين "مدحت باشا" ورفقائه الذين كانوا يطالبون بفتح مجلس المبعوثان وإعلان الدستور وترسيخ حكم دستوري يدعمه القانون، ولهذا السبب خلعوا كلاً من السلطان "عبد العزيز" و"مراد الخامس" عن العرش.

وكان ترتيبه بين السلاطين العثمانيين ٣٦ إذا أخذنا في الاعتبار كلاً من الأمير "سليمان" والأمير "موسى جلبي" الذين أعلنا سلطنتهما فى عهد "الفترة"، وإن لم نعتبرهما فترتيبه ٣٤.

تمت مراسم "حفل الجلوس"[٣] في ٣١ أغسطس عام ١٨٧٦م، في تمام الساعة ١٢ ظهراً، حيث اعتلى كرسي العرش الذهبي في قصر "طوب

1 Kemal H. Karpat; Islâmın Siyasallaşması, Istanbul Bilgi Üniversitesi Yayınları, Istanbul 2004, s. 292

2 Cevdet Küçük; "II. Abdülhamid", DIA, Cilt 1, TDV Yayınları, Istanbul 1993, s. 223-224

٣ حفل اعتلاء الحكام للعرش

قابي". وطبقاً للعُرف تم ربط سيف على خصره، ثم توجه مع "جماعة حملة السيف" يوم الأربعاء ٧ سبتمبر عام ١٨٧٦م إلى حي "أيوب" بالمركبة السلطانية. ثم ذهب إلى قصر "طوب قابي" وهو يمتطي حصاناً. ومن هناك مر بالمركبة السلطانية أيضا على قصر "ضُولْمَه باغْجَه" وعند عودته -وكما تقتضي العادة- قام بزيارة بعض قبور أجداده، وقام بتوزيع الصدقات. وفي يوم ١٤سبتمبر ذهب إلى "سَرْ عَسْكَرْلِقْ" :القيادة العامة (جامعة إسطنبول حالياً)، وتناول الطعام مع ضباط البحرية. وألقى هناك خطبة، وعقّب المشير "رادف" باشا على خطبته.

وفي مساء يوم ١٥ سبتمبر تناول الطعام في قصر "يِلْدِزْ" مع الوزراء ورجال الدولة ورجال القصر. وألقى خطبة عن حتمية أن ينسى جميع الحاضرين كل خلافاتهم، وأن يوجهوا جهدهم فقط لخدمة الدولة. وذهب يوم ١٨ سبتمبر إلى "هيئة الرقابة البحرية" في منطقة "قاسم باشا"، وتناول الطعام مع "الأَمِيرْآلايات" والضباط من نفس أوانيهم. وفي يوم ٥ أكتوبر زار "المشيخة"[١] وتناول الإفطار مع السادة العلماء. وفي ٩ نوفمبر سأل "حيدر باشا" عن حالة الجنود المصابين في المستشفى العسكري. وصاحَب الأمراء والمحافظين في نزهات بحرية في بحر مرمرة والبوسفور والبحرالأسود. وصلى مع العامة في المساجد.

وهكذا لمع السلطان كحاكم ديموقراطي لم يُر مثله من قبل.[٢] وتحتل فترة توليه الحكم كحاكم من سلاطين آل عثمان -التي استمرت ٣٢ سنة و٧ أشهر، و٢٧ يوماً- من حيث طول المدة المركزَ الخامس بعد السلطان "سليمان القانوني"، و"عثمان الغازي"، و"محمد الرابع"، و"أورخان الغازي".

١ مكان تواجد شيوخ الإسلام

2 Yılmaz Öztuna; Büyük Türkiye Tarihi, Cilt 7, Ötüken Yayınları, s.133-134

بينما تحتل فترة حكم السلطان "محمد الفاتح" المركز السادس.

اتسمت فترة حكمه -التي بلغت مدتها الفعلية ٣٠ سنة و٥ شهور و٨ أيام من مجموع فترة حكمه التي تقترب من ٣٣ عاماً- بحكمه الفردي في إدارة الدولة. فشهد عصره تجميد مجلس النواب، وإعلان الدستور الثاني. وفي يوم ٢٧ أبريل عام ١٩٠٩م تم خلعه عن العرش وهو في ٦٦ من عمره و٧ شهور و٧ أيام. ولكن بنص الدستور الثاني اعتبر خلعه وهو في ٦٦ عام و٩ شهور و٥ أيام. وبعد خلعه تم نفيه هو وأسرته إلى "سلانيك". وعاش محبوساً لمدة ثلاث سنوات ونصف في قصر "آلاتيني" المملوك لأحد أثرياء اليهود. وبسبب اندلاع حرب البلقان عام ١٩١٣م، وتعرُّضِ مدينة "سلانيك" للخطر، تم إقناعه بصعوبةٍ بأن ينتقل هو وأسرته إلى إسطنبول، على الرغم من رغبته ألا يبرح مكانه. وهناك عاش حياته تحت المراقبة في قصر "بَيْلَرْبَيِي".

وتوفي السلطان عبد الحميد الثاني بمرضه نتيجة تقدم السن به في ١٠ فبراير ١٩١٨م عن عمر يناهز ٧٦ سنة. ويقع قبره في مبنى ضريح السلطان "محمود الثاني" بـ"جَمْبَرلِي طاش" بمدينة إسطنبول.

ب. سماته الشكلية وبعض مميزاته الشخصية

"كان السلطان عبد الحميد عريض الصدر، مشدود القامة، متوسط الطول، يتمتع جسده بالتناسق والرشاقة. وكان هادئاً تبدو عليه ملامح الريبة على حد تعبير والده السلطان "عبد المجيد". حديثه شديد الهدوء، يتكلم كلمة كلمة. بشوش الوجه. وكان يأسر قلوب الناس بوجهه الباسم وحديثه العذب. لم يكن يُسعده الضحك قهقهة، لدرجة أنه لم يره أحد قط

ضاحكا بصوت عال. كانت مشيته متواضعة وشديدة الوقار. وكان غاية في الوداعة. كان مختلفاً في كل أحواله، رقيق الإحساس جداً، حريصا لأقصى درجة لكيلا يجرح قلب أحد. اكتسب بذكائه ومعاملته الرقيقة الودودة تقديرَ الغرباء. لذا كان يدير أموره بسهوله. وكان يُفاجيء القائمين على خدمته بتصرفاته التي تكاد تقترب من الكمال في كل أحواله ومواقفه، وكانوا في ذات الوقت يعتزون بخدمته، ويتسابقون في تأديتها".[1]

كان حريصا على انتقاء الملابس النظيفة البسيطة المهندمة الملائمة لسنه، ولا يحبذ أن يُرص عليها الحلي من أمثال الرتب وما شابَهها. فكان يحمل في رقبته نيشان "سلالة آل عثمان" فقط. وكان يرتدي -صيفاً وشتاءً- معطفاً طويلاً من أقمشة رقيقة أو سميكة يصطف عليه من الأمام صفان من الأزرار. وكان يفضل الأقمشة الأنسب للصحة.

وكان يشير إلى أهمية الملبس والمظهر، موضحاً أن فوضوية الزي تنبع من تشتت الفكر، وأن الزي النظيف المهندم إلى درجة الأناقة يعبر عن حياة منظمة.

ومع نهايات القرن ١٩ وبداياتِ القرن ٢٠ أصبح السلطان عبد الحميد الثاني أحد الشخصيات التي أكثرَ العالمُ في الحديث عنها.[2]

يَحكي عنه "عبد الرحمن شرف أفندي" أخر كاتب وقائع (مؤرخ الأحداث) الدولة العثمانية فيقول:

"كانت أمارات السلالة العثمانية واضحة جداً على وجهه وبنيته. كان رجلاً ذكياً وحساساً، سريع الفراسة، قارئاً جيدا للأحداث من حوله. رقيق

1 Mehmed Aydın; Sultan II. Abdülhamid'in Liderlik Sırları, Izci Yayınları, Istanbul 1998, s. 13

2 Akgündüz; a.g.e., s. 265-275

obeikandl.com

المعاملة دائما، عذب الصوت. يصون بكل كيانه وقارَ وعزةَ مقام الخلافة والسلطنة. لديه القدرة على توجيه تهديده في المكان الصحيح. يعرف متى يُظهر شدته، ومتى يُسكن غضبه. لطيف دائما مع حاشيته، لديه القدرة على أسر الأجانب الذين يقابلونه".[١]

بينما يشرح "ناهد سري أوريك"، أحد شهود العيان على عصره، محللا:

"وفي حين أنه كان قليل البضاعة فيما كان يتمتع به أغلب أجداده من دراية جيدة بالشعر والموسيقى وفن الخط، إلا أنه بالمقابل كان ذا مهارة بارعة في حرفة النجارة، حتى يُروى أنه كان يصنع العصا للجنود الذين فقدوا أرجلهم في حرب اليونان. وتَظهر تلك المهارة في عدة خزانات وغيرها صنعها بيده. واشتهر أيضا بمهارته في استخدام السلاح وركوب الخيل. كان متوسط القامة، يميل وجهه للدمامة أكثر مما يميل للجمال بسبب أنفه الكبير. كان صوته غليظا ولكنه كان متناغما. وعلى الرغم من قصر قامته إلى حد ما وعدم وسامته إلا أنه كان يتميز بالحلاوة المشوبة بالمهابة. وكان يفيض عذوبة ومودة تؤثران على مُحدثيه، يسلِّم بهذا من يحبه ومن لا يحبه. كان متواضعاً لدرجة أنه حينما كان يتحدث عن قصره كان يعبر عنه بـ"بيتنا" بدلا من أن يقول: قَصْرُنَا".

كان السلطان عبد الحميد يَعرف أيضا قليلا من اللغة الفرنسية، وكانت لغته التركية أكثر قرباً من اللغة التركية الدارجة (لغة العامة)، ولم تكن تستهويه اللغة العثمانية الثقيلة التي كان يتحدث بها الصفوة.[٢] وكان يشبه عمه "عبد العزيز" من حيث الطبع والميول والسلوكيات. وكان كلاهما

1 Reşat Ekrem Koçu; Osmanlı Padişahları, İstanbul 2000, s. 561

2 Mim Kemal Öke; Vambery, Belgelerle Bir Devletlerarası Casusun Yaşam Öyküsü, Istanbul 1985, s. 4

obeikandl.com

من حيث المكانة أكثر رجال الصفوة العليا قرباً إلى المسلمين العثمانيين. قد يكون ورث كل من العم وابن الأخ عن أمهاتهما هذه الصفات التي تقربهما من عامة الشعب، لأن أمهاتهما أيضا كانتا من عامة الشعب مثل أمهات أغلب السلاطين العثمانيين، مما سمح بتسلل الثقافة الشعبية إلى طبقة الصفوة بالتدريج.[1]

لم يكن السلطان عبد الحميد رجلاً وسيماً كأبيه، كما ذكرنا سابقاً، إلا أنه لم يكن دميما، وكان يتمتع بجمال الروح. ففي وجه هذا الرجل المتوسط القامة سمات خاصة؛ نظراته، عيناه البنّيتا اللونِ ذواتا النظرات الثاقبة، أنفه المقوس ودقيق الأطراف قليلاً. وكان صوته جميلاً حسبما أشار إليه كاتب الوقائع، غليظاً قوياً به رنين رجل السلطة.[2] كان مُقلا في حديثه، مُكثرا في إنصاته. يبعث الطمأنينة في من يتحدث إليه، يعامل الجميع بعذوبة. كان بشوشا حتى مع من لا يرغب في مقابلته، ولا يبوح بضيقه منه. عُرف عنه الاتزان منذ أن خطا إلى سن الشباب. فلم يشرب الخمر. وكان يعيش حياة بسيطة بعيدة عن كل أنواع السفاهة. وكان يستمتع بالموسيقى الغربية والمسرح والأوبرا. كان يعي جيدا الطبائع المختلفة لأولئك الذين يعملون في مناصب الدولة، ويُجيد الاستفادة منهم، لذا كان يعطي كل فرد منهم المنصبَ الذي يتوافق مع طبيعته. (يضع الشخص المناسب في الوظيفة المناسبة). وكان يستشير رجال الدولة على اختلاف رؤاهم قبل أن يبدي قراره في قضايا الدولة المهمة، وأحيانا كانت تتم مناقشة الآراء المتناقضة في مجلسه، ثم يعطي في النهاية رأيه القاطع. وفي القرارات المصيرية كان يحيل القضية إلى المجلس حتى يصدر القرار منه. كان إنساناً متديناً محباً

1 Karpat; a.g.e., s. 294

2 Koçu; a.g.e., s. 562

obeikandi.com

للخير.[١] عاش حتى آخر عمره مُسلماً متديناً.[٢] وكان شديد الكره لسفك الدماء، لم تتعد فرمانات الإعدام التي وقّع عليها أصابعَ اليد الواحدة طوال فترة حكمه التي استمرت ٣٣ عاماً. ولم يكن لديه رغبة في قطع رزق أحد، حتى إنه كان يرسل لمعارضيه السياسيين الذين هربوا خارج البلاد أو تم نفيهم مثل "نامق كمال"، و"مدحت باشا" رواتب خاصة.[٣]

كان مولعا بالتاريخ وبخاصة التاريخ الحديث. وكان يعجبه الاستماع إلى الأشخاص الذين لهم معرفة جيدة بأحداث التاريخ القريب وشخصياته أكثر من قراءتها في الكتب. وكان يؤمن بأن التاريخ هو ساحة للعبر والعظات. وانطلاقا من هذه الرؤية كانت تقام ندوات كثيرة خلال فترة حكمه عن موضوعات تاريخية، وكان قد اعتزم على إنشاء ملفات خاصة تحوي وثائق تتعلق بالتطور التاريخي للقضايا الهامة.[٤]

كان أحب أجداده إليه هو السلطان "ياوز سليم خان". ولقد عبر عن هذا الحب لـ"ڤيلهلم الثاني" (Wilhelm II) إمبراطور ألمانيا في أثناء زيارته لإسطنبول، فأراد الأخير أن يستألفه فأمر عند عودته إلى بلده بطباعة "ديوان ياوز" مُظهرا فيه كل مهارات الطباعة الألمانية، وأرسل نسخة مغلفة بغلاف فاخر إلى السلطان عبد الحميد صديقِه العظيم في إسطنبول.[٥]

كان مقتصداً يكره الإسراف على الرغم من سخائه، لأنه كان يعي جيداً عاقبة السخاء بإسراف، والشجاعةِ بتهور.[٦]

1 Küçük; a.g.m., s. 223-224
2 Karpat; a.g.e., s. 282
3 Küçük; a.g.m., s. 224
4 Akarlı; a.g.m., s. 253
5 Koçu; a.g.e., s. 562
6 Koçu; a.g.e., s. 562

obeikandi.com

عادة كان ينام مبكرا ويستيقظ مبكرا -إلا في حالات استثنائية-، ينهض قبل بزوغ الشمس، وكان على عادته يستحم، ويصلي صلاة الصبح، ثم يبتهل إلى الله بالدعوات، يقرأ ما تيسر له من القرآن الكريم.

وبعد أن يؤدي عبادته، يتناول الفطور. وكان إفطاره بسيطاً جداً؛ فكان يشرب نصف كوب من اللبن مخلوطاً بالماء المعدني، وبعدها مباشرة يشرب قهوته يليها انكبابه على المنضدة ليباشر أعماله الرسمية حتى حوالي الساعة ١١:٠٠.[١]

كانت طفولته حزينة جداً؛ حيث فقد أمه وهو في العاشرة من عمره، وفقد والده وهو ابن ١٩ سنة. ولقد أنضجته تلك الأحزان التي مر بها، فجعلته أكثر اهتماماً بدراسته، عازفاً عن اللهويات بصفة خاصة، ويحيا حياة وقورة. فكان يحب القراءة والاطلاع على كل ما حدث ويحدث في العالم. لذا كان يتجنب أي شيء يعرقله عن الإنصات بدقة لما يتحدث به المدرسون وأرباب العلم. وكان كل تركيزه في المدرسة مُنصباً على دروسه. وبدأت تتشكل في ذهنه منذ هذه المرحلة أسس السياسة التي سيطبقها فيما بعد في المستقبل.[٢]

كانت ممارسة الرياضة من أحد أعماله اليومية حينما كان أميراً. وكان فارساً بارعاً ومصوباً (نشانجي) ممتازاً. ويُقال: إنه كان يبحر بقاربه متوجهاً إلى "قِيزْقُولَه" (برج البنات) ومن هناك يدخل البحر. وكانت مزارع شقيقته السلطانة "جميلة" الواقعة في "عَلَمْ داغْ" (Alemdağ) أعلى "طرابية" (Tarabya)

1 Ayşe Osmanoğlu; Babam Sultan Abdülhamid (Hatıralarım), Selçuk Yayınları, Istanbul 1986

2 Joan Haslip; II. Abdülhamid Han, Terc.: Zeki Doğan, Fener Yayınları, Istanbul 1998, s. 51

من أحب الأماكن إليه. وظل حتى الأيام الأخيرة من حكمه يعمل في ورشة النجارة الخاصة به في قصره، كأمهر أُسْطَوات النجارة في عهده.

كان مقتصدا. وكان الدخل الشهري المخصص له مع الإيراد الوارد له من إدارته لمزرعته يعد ثروة كبيرة من جانب، ومن جانب أخر مصدرا لإكسابه دراية وخبرة عن الإدارة وأسواق المال. وكانت ترفيهاته محدودة. وظل طوال عمره معتنيا بصحته عازفا عن الخمر والإفراط في الملذات.[١]

كانت ذاكرته قوية جداً، محال أن ينسى صوتا سمعه أو صورةً شاهدها ولو مرة واحدة. وكانت ذاكرته القوية تثير الحيرة في نفوس الناس.[٢]

ولاهتمامه الشديد بصحته، كانت ساعات عمله وساعات تناول الطعام ومواعيد استراحته غاية في النظام. كان في العموم -وطبقا لتقاليد القصر- يتناول الغداء في الساعة الحادية عشرة، ويتناول وجبة المساء في الخامسة. وحينما يتم تجهيز الطعام يذهب لغرفته ليتناول الطعام مع زوجته. كان يتحاشى أن يجلس على مائدة الطعام وحيداً، وكان يسعده تناول الطعام مع عائلته. وطوال فترة حكمه لم يفته تناول الطعام مع أهله إلا في نادر الأحوال.

وبعد الطعام كان يستلقي على الأريكة مسترخيا من ١٥ إلى ٢٠ دقيقة، ثم ينهض من جديد ليباشر الأعمال المتبقية منذ الصباح، فيمر على "السَّلاَمْلِكْ"[٣] ويبدأ العمل. وكان يقابل أثناء عمل الظهيرة بَاشْكَاتِباً (رئيس الكتبة) أو الكاتب الثاني، وبعضاً من رجال الدولة. ويستمر هذا الأمر حتى المساء. وغالباً كان يخرج إلى الحديقة عندما يحل المساء،

1 Akarlı; a.g.m., s. 253

2 Osmanoğlu; a.g.e., s. 22

٣ السلاملك: هو مقر تواجد الحاشية أو رجال القصر، وهو مقر العمل أو الإدارة الخاص بالملك.

obeikandl.com

حيث يتجول مع الباشاوات والبكوات، وأحيانا كان يمر على "الحرم". وأحيانا كان يعمل في ورشة النجارة، أو يقرأ في المكتبة.[1] وحينما توجد أعمال كثيرة وشاقة كان يظل يعمل في القصر حتى منتصف الليل. وإذا لم يكن لديه عمل، يتوجه فوراً إلى غرفة الاستراحة من بعد أن يؤدي صلاة العشاء.

كان السلطان عبد الحميد الثاني يتجنب إضاعة الوقت مثلما كان يتجنب إضاعة المال. وكان يجيد استثمار وقته، فكان يخطط ويضع جدولاً لكل شيء. وكان يدون الأشياء التي يؤديها والتي سيؤديها، بل كان أيضا يجعل من يؤدونها يسجلونها، ويسجل كل شيء بالساعة التي تنجز فيها.[2]

كان سر النجاح في رأيه هو: أن تتحرر من الجهل لتصبح عالِماً.

كان قارئاً جيداً. وكان يشعر بمتعة كبيرة من قراءة الكتب. وكان مفتوناً بالعلم؛ فحبه للقراءة الذي بدأ معه في سنوات صباه وهو مازال أميراً قد لازمه طوال عمره. وكان يعرف جيدا تاريخ الدولة العثمانية بصفة خاصة. وأثناء توليه الحكم أَسَّس مكتبة غنية جداً بالكتب في قصر"يِلْدِزْ"، وملأها بالكتب التي تم جلبها من كل أنحاء العالم. وهذه المكتبة هي مكتبة جامعة إسطنبول حالياً.

عادةً كان يقرأ كتاباً قبل خلوده للنوم. وفيما يلي نقل لبعض ما رَوَتْهُ عنه ابنته: السلطانة عائشة في مذكراتها بهذا الصدد:

"كنتُ كل ليلة في غرفتي أكلف من يقرأ لي كتابا لأتخلص من الأعباء الثقيلة التي تشغلني نهاراً، ولأبدد عنى أفكاري وهمومي، ولأشغل ذهني بأشياء أخرى، لأنعم بنوم هادىء. ولكن حينما كان ما أقرؤه جذاباً، يهرب

1 Osmanoğlu; a.g.e., s. 27

2 Aydın; a.g.e., s. 18

كل نومي. لذا ألزمت فريقا بترجمة بعض الروايات لهذا الغرض". ويضيف ضاحكا: "كانت مربيتي تهدهدني في طفولتي، والآن تؤثر الكتبُ التي أقرؤها التأثير نفسه. كنتُ أنصت لنصفها وأغط في النوم قبل أن أتمكن من سماع نصفها الأخر. وهكذا أصبحت القراءة هي حبوبي المنومة".[١]

كانت حياته العائلية هادئة جداً؛ فكان نموذجا للسلطان ونموذجا لرب الأسرة. وكان يحب الأطفال جدا ويتواصل معهم ويعاملهم بأبوة ولا يتجاهلهم. توفي أحد أولاده محترقاً، وآخرُ مات بمرض لم يتمكن أحد من تشخيصه، فحزن كثيراً. وقال: "لم يتمكن أحد من إنقاذ ابني، فما بال أطفال الفقراء؟ فلآمُرْ -على الأقل- بإقامة مستشفى لكيلا تحترق قلوب آباء آخرين مثلما احترق قلبي". وبالفعل بنى مستشفى الحميدية للأطفال، المعروفة اليوم باسم مستشفى "شِيشْلِي" للأطفال، وعَيَّن فيها صفوةَ الأطباء، وجهزها بأحدث الأجهزة التي جلبها من "ألمانيا". وهكذا أنقذ قلوب الكثير من الآباء من الاحتراق على أطفالهم، وفاز بدعواتهم له.[٢]

بذل السلطان عبد الحميد الثاني جهداً كبيرا فيما يخص تربية الأطفال وتعليمهم. ولقد أفرد لأطفاله مدرسين مخصوصين لتعليمهم، وكان يتبع أسلوبا شديد الدقة في تعليمهم. وحينما يتوفر له الوقت كان يستدعي من يريد من بناته ليتحدث معها. ولم يكن يسمح قط لزوجاته أو لبناته بالتدخل في الشؤون الرسمية، لاعتقاده أن في هذا التدخل مضرة للدولة.[٣] وكان رأيه فيما يتعلق بتربية الأطفال أنه "يجب أن لا يُفضح الأطفال ولا تُذكر مساويهم في وجوههم، بل يجب على الأمهات أن تنبهن أولادهن".

1 Osmanoğlu; a.g.e., s. 23
2 Aydın; a.g.e., s. 24
3 Osmanoğlu; a.g.e., s. 15-16

وكان يحب أن ترتدي بناته الملابس البسيطة جداً البعيدة عن البهرجة، قائلاً: "يجب على الفتيات أن يتحركن في رزانة وهدوء". وكان يكره حديثهن بصوت عال، وإشارات اليد. وكان يسعى لتعليمهن التعامل باحترام مع أمهاتهن ومع إخوتهن ومن يكبرونهن، وأن يحافظن على دَورهن ولا يتخطين من أمامهن. ولم يكن يحبذ تدليلهن. أما بالنسبة إلى الذكور من أولاده فكان يقول: "إن الولد الذكر لابد أن تتم تربيته وكأنه رجل".[1]

عُرف عنه حبه للنجارة ورسم المناظر الطبيعية، وكان كلما توفر لديه الوقت يعمل في ورشة النجارة الخاصة به. له عدة آثار كان بعضها مزينا بالصدف وبعضها محفورا، وهذه الآثار محفوظة في قصر "يِلْدِزْ".

مثلما ذُكر سابقاً، فإن ولعه بالنجارة بدأ منذ عهد والده. كان يوجد آنذاك حرفي موهوب في حرفته يدعى "خليل أفندي". فتعلم منه دروس النجارة مثلما تعلم منه من قبلُ والدُه السلطان "عبد المجيد"، وكانا يعملان معا. وأقام في القصر ورشة للنجارة. وكان العمل هناك هواية من أكبر الهوايات التي تمتعه. وكان السلطان يهوى أيضا صناعة الخزف الصيني. وكان يُهادي بمنتجاته اليدوية -سواء الخشبية أو التي هي من الخزف الصيني- رجالَ الدول الأجنبية.

وكان أيضا تاجراً ماهراً جداً؛ فمنذ أن كان أميرا كان يدير المزرعة، ويكتسب منها دخلا كثيرا؛ حتى إنه لما تولى العرش عام (١٨٧٦م) وزع منحة الجلوس على العرش والتي بلغت ٦٠,٠٠٠ ليرة من ماله الخاص، وهكذا وفر لخزينة الدولة مبلغا كبيرا من المال.[2] وكان يؤيد أن يكون

1 Aydın; a.g.e., s. 26

2 Tahsin Paşa; II. Abdülhamid:Yıldız Hatıraları, Boğaziçi Yayınları, Istanbul 1996, s.11

لكل إنسان مهنته الخاصة به، وكان يقول: "اعمل، اِسعَ، اجتهد... ليكن لك مهنة، حتى ولو كنت ملكا..."

كان شديد التواضع، لا يرى نفسه أفضل من الآخرين، وكان يكره المتكبرين.[1] وكان التذرع بالصبر وقوة الاحتمال في التعامل مع الأحداث غير المرغوب فيها، وحلُّ المشكلات بالحفاظ على هدوء الأعصاب ورباطةِ الجأش من سماته ومن أسرار قدراته القيادية المهمة.

كان عبد الحميد خان الثاني عاشقاً لأمته؛ يؤلم قلبَه وقوعُ أي أذى لأي شخص لأي سبب، يعمل ليلاً ونهاراً من أجل سلامة الوطن والأمة، ويضحي بحقه من الراحة ويظل بلا نوم. وفي هذا الصدد تقول ابنته السلطانة "شاديه":

"كان والدي يحب أمّته لدرجة الوله، وكان حبه نابعاً من القلب واضحا على ملامح وجهه؛ حينما يستخدم كلماته "صغيري أحمد"، "صغيري محمد" وكأنه يخاطب أولاده. إنني أتذكر حربا واحدة أثناء فترة حكم والدي، وهي حرب اليونان ١٨٩٧م، كنت آنذاك طفلة. وحسبما أتذكر، فإنه تم إحضار وتوزيع كميات كثيرة جدا من الأقمشة الكتانية على الغرف التي في "الحرم"، وتمت حياكتها ليلا من أجل الجنود الجرحى. كنا نقف مع الخدم جنبا إلى جنب أمام ماكينات الخياطة منذ ساعات الصباح الأولى وحتى ساعات نومنا، نحاول إنجاز العدد المطلوب من الملابس. استمر هذا العمل الدؤوب طوال فترة الحرب. وكنت أقوم بخياطة الأزرار في القماش، أعتقد من وجهة نظري أنني أؤدي عملاً عظيماً.

1 Necip Fazıl Kısakürek, Ulu Hakan Abdülhamid Han, Büyük Doğu Yayınları, Istanbul 1994, s. 317

كان والدي يأتي إلينا ويهنّئنا على العمل الذي ننجزه ويردف قائلا: "يا أولادي! فليحفظ الله وطننا من كيد الأعداء!".

كانت تلك الكلمات تمدنا بالقوة والحماس. كنا ننصت له وعيوننا منصبة على ماكيناتنا وإبرنا، لكيلا نضيع الوقت... كم كان والدي يردد كلمة: "الوطن! الوطن!" كرر هذه الكلمة كثيرا جداً..."[1]

كان موهوباً أيضا في اكتساب ود الجميع، حيث كان يجلب مودتهم بالهدايا التي يعطيها لأعدائه وأصدقائه، بالبشاشة التي تعلو وجهه، بحديثه الحلو، بمودته، بشخصيته المتواضعة البعيدة عن الغرور.. كل هذا مكنه من تأسيس أواصر المحبة بينه وبين الأخرين.[2]

وفي هذه النقطة أيضاً، فإنه فضلاً عن شهرته في دهائه السياسي فقد اشتهر بذكائه الخارق، وذاكرته القوية أيضاً. ولأنه لكل جواد كبوة فلا يخلو هذا الذكاء الخارق من الجوانب المعيبة، وعلى رأسها الوهم. ولكن بشكل عام هناك اتفاق على كونه ذا خبرة ودهاء وذكاء يفوق ذكاء كل رجال الدولة في عصره. وكان تأثيره على الناس دائما محط الإعجاب.

كان -كوالده- لطيفاً في علاقاته الشخصية، يقف احتراما عند استقبال أي شخص. مَنَع منعاً باتاً عادةَ القرون الوسطى مثل تقبيل الأرض عند مقابلته، كان مُقنعا جداً، مهيب الصوت، حلو الحديث جداً. لم يكن يخاطب بالضمير "أنت" أيَّ أحد حتى أطفاله، وكانت تلك الصفات أحد أسباب سلطته الشخصية التي تزيد عن ٣٠ سنة. وبرغم الدعايات التي انتشرت في أوروبا عن الحكام الأتراك إلا أن الأجانب الذين عرفوا عن

1 Kısakürek; a.g.e., s. 362

2 Aydın; a.g.e., s. 83

قرب شخص السلطان "عبد الحميد"، صرحوا بأنهم تقابلوا وجهاً لوجه مع شخصية لم يتوقعوها أبداً، ولم ينسوا ما انطبع عنه في ذاكرتهم.[١]

إن الدول والمؤسسات تتطور بالكوادر المتناغمة التي تنذر نفسها لرسالتها، وتستجيب للأوامر ولكن في نفس الوقت تعبر عن أفكارها بوضوح كلما اقتضى الأمر. فالكوادر القوية، والوزراء والمعاونون الأكفاء لهم ثروة لا تقدر بثمن. ويتعسر النجاح على القائد المحروم من مثل هذه الثروة. فكان السلطان عبد الحميد الثاني من القادة النادرين والذين تخطوا هذه العقبة على الرغم من الصعوبات.[٢]

كان شديد الاهتمام بتنفيذ أحكام الإسلام، واجتناب نواهيه. ولم يكن يدخر جهدا في بذل أيّ جهد من شأنه حفظُ دين المسلمين وذريتهم، ووأد أي شيء يضر الوطن داخلياً وخارجياً.

تحكي ابنته السلطانة "شاديه":

"كان -والدي- رجلاً معافى الجسد، يمتلك قواماً سليماً، وجسداً رياضياً. إنني أتذكر في طفولتي أنه مرض مرة واحدة فقط. كان قليل النوم. يستيقظ قبل الفجر. يؤدي الصلوات الخمس، ودائما يتلو القرآن، ويطالع صحيح البخاري. كان مسلماً حقاً، متديناً، قريباً من الله تعالى. دائما على وضوء. لا يمل العمل".[٣]

كان يطلب من خدامه أن يوقظوه في أي ساعة من الليل، عند حدوث أيّ أمر طارئ، لأنه كان يرفض أن يؤجل عمل اليوم إلى الغد تحت أي ظرف.

---

1 Öztuna; a.g.e., s. 138-139

2 Aydın; a.g.e., s. 171

3 Şadiye Osmanoğlu; Hayatımın Acı ve Tatlı Günleri, Bedir Yayınevi, Istanbul 1966, s. 115

openkandil.com

وباختصار فإن الفرق الشاسع الذي تَميز به عبد الحميد خان الثاني عن السلاطين في العهود الأخيرة هو مباشرته لإدارته للدولة بالفعل، وكونه رمزاً لفكر، وصاحب شخصية مشعة بالأمل للمجتمع. بهذه الصفات كان السلطان عبد الحميد الثاني في الحقيقة من وجهة نظر المجتمع العثماني سلطاناً غير تقليدي، ينأى بفكره عن القوالب الجامدة. كان صاحب شخصية حساسة جمع في نفسه المتناقضات، وعلى الرغم من قدرته على اللعب على كل الأوتار، إلا أنه كان يسير بعزم و بإصرار في الطريق الذي يعرفه.[١]

عند تأملنا لكل هذه الآراء، ومثلما أوضح (M. Ali Kılıçbay)، فإن العثمانيين قد عاشوا في عهد السلطان عبد الحميد الثاني أكثف فترات الاتجاه للغرب، وأحرزوا تقدما فيه على الرغم من الاتهامات الموجهة إليه بأنه وضع نظاماً استبداديا.[٢]

ج. عائلته

١. زوجاته

١. نازك أَدا باش قادن أفندي.

٢. بدرِ فَلَك باش قادن أفندي.

٣. صافيناز نور أفسون قادن أفندي.(٢)

٤. بيدار قادن أفندي.(٢)

1 Bayram Kodaman; "II. Abdülhamid Hakkında Bazı Düşünceler", Osmanlı Ansiklopedisi, Cilt 2,Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 1999, s. 275-285

2 M. Tanju Akad; Osmanlıların Stratejik Sorunları, Kastaş Yayınları, Istanbul 1995, s. 208-209

obeikandl.com

٥. دلبسند قادن أفندي.(٣)

٦. مازيده مستان قادن أفندي.(٣)

٧. أمثال النور قادن أفندي.(٣)

٨. عائشة دستى زر مشفقة (كايخان) قادن أفندي.(٤)

٢. أولاده

أ . الذكور

١. محمد سليم أفندي.

٢. محمد عبد القادر أفندي.

٣. أحمد نورى أفندي.

٤. محمد برهان الدين أفندي.

٥. عبد الرحيم خيري أفندي.

٦. أحمد نور الدين أفندي.

٧.محمد بدر الدين أفندي.

٨. محمد عابد أفندي.

ب. الإناث

١. السلطانة علوية.

٢. السلطانة نائلة.

٣. السلطانة ذكية.

٤. السلطانة فاطمة نعيمه.

٥. السلطانة سنية.

obeikandl.com

٦. السلطانة سنيحة.

٧. السلطانة شاديه.

٨. السلطانة عائشة.

٩. السلطانة رفيقة.

١٠. السلطانة خديجة.

١١. السلطانة علية.

١٢. السلطانة جميلة.

١٣. السلطانة ساميه.[1]

obeikandl.com

1 Çağatay Uluçay; Padişahların Kadınları ve Kızları, Ankara 1992, s. 171-183, Akgündüz; a.g.e.,s. 269